الدعوة إلى التَّوحيد
في العصر
الحاضر

للشيخ د. صالح سندي

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأُصلي وأُسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين.

أما بعد: فموضوع هذا اللقاء الذي أسأل الله جل وعلا أن يجعله نافعًا للسَّامع والمتكلِّم هو الدَّعوة إلى التَّوحيد في العصر الحاضر، والدَّعوة إلى الله عز وجل يا أيها الأحبة رُتبةٌ مُنيفة لا يطلع بها على وجهها إلا الصادقون، وهي من أجل الطاعات المُقرِّبة إلى رب الأرض والسماوات سبحانه، وقد جعل النبي عليه الصلاة والسلام الدِّين هو النصيحة، فقال: «**الدين النصيحة**»، وفي هذا بيانٌ بليغٌ بمنزلتها الرَّفيعة في الشريعة.

والشاهد هذا في كتاب الله قوله جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وهذا كما تعلم استفهامٌ إنكاري، أي لا أحد أحسنُ قولًا ممن هذه حاله، قد اهتدى في نفسه، ثم دعا عباد الله إليه، ولا شك أن رأس أولئك وغُرَّتهم أنبياء الله ورسله والدُّعاة الصادقون الذين عَمِلوا على تكميل أنفسهم ثم تكميل غيرهم قد حصلتْ لهم الوراثة التامةُ لهم.

إن الدعوة إلى الله إذا كانت تشمل تعليم الجاهل ووعظ الغافل، ومُجادلة المبطل، والأمر بأمر الدِّين عامة والنهي عن ضده، فلا شك أن ما تعلَّق بأصل الدِّين أعظم أهميةً وأعلى شرفًا، بل هل هذا هو المقصود الأسمى للدعوة إلى الله، الدعوة إلى الله وُفق المنهج الشرعي التي تهتم بالآداب والرَّقائق وتوثيق العلاقات الاجتماعية، لا يُقلل من شأنها وأهميتها، لكنها إذا ما قُورنت بأعظم القضايا ألا وهو التَّوحيد تقاصرت أمامه.

إن من المعلوم بالضرورة من الدِّين أن التَّوحيد أحسنُ الحسنات وأفضلها وارفعها، وأنه

أصلُ الدِّين وجماعة وظاهره وباطنه، وأوله وآخره، وهو أصلُ دعوة الرُّسل وأساسها ورأسها وأكملُ ما فيها، بل ليس في دين المرسلين ولا كتب رب العالمين، أمرٌ أعظمُ من التَّوحيد، قليلُ هذا التَّوحيد يُنجي من الخلود في النار، وكثيره يُنجي من دخولها برحمة الله سبحانه وعياذًا بالله منها.

وتحقيق هذا التَّوحيد -يا أيها الإخوة- وبلوغ مراتبه العُليا يعني انجذاب الروح إلى الله عز وجل محبةً وخوفًا وإنابةً وتوكلًا ودعاءً وإخلاصًا وإجلالًا وهيبةً وتعظيمًا، فلا يرجو العبد سواه ولا يخشى ألا إياه ولا يُنيب إلا إليه ولا يتوكل إلا عليه، إذ ليس في قلبه شيءٌ لغيره، ولا إرادة لما حَرَّم ولا كراهةٌ لما أمر، فيكون مُتحققًا بقول الله جل وعلا: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم:٤٢]، فليس وراءه سبحانه غايةٌ تُطلب، وليس دونه غايةٌ إليها المُنتهى، هذا التَّوحيد يا أيها الأحبة هو مُفتتح دعوة الرُّسل وخاتمتها وأكبر قضيةٍ فيها: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فأعظمُ ما عُني به الأنبياء أجمعون التوحيد، مع أن مجتمعاتهم كانت تعيش مُشكلاتٍ اجتماعية واقتصادية وأخلاقية وسياسية إلى غير ذلك، ومع ذلك فالقضية الأعظم في دعوتهم التَّوحيد، جميعهم كان يُنادي في أقوامهم: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥] هذا نبينا عليه الصلاة والسلام يبدأ دعوته بقوله كما عند أحمد بإسنادٍ جيد: «**قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا**» ويختمها بقوله عليه الصلاة والسلام: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يُحذِّر ما صنعوا**» كما في **الصَّحِيْحَيْن**.

وفيما بين ذلك كانت دعوة التَّوحيد تأخذ أكبر قدرٍ من دعوته الشريفة.

لما سأله عمرو بن عبسة رضي الله عنه كما في «صحيح مسلم» «الله أرسلك؟ قال نعم، قال: بأي شيءٍ أرسلك؟ قال: «بأن يوحد الله ولا يُشرك به شيء، وكسر الأوثان، وصلة الرحم».

حينما بعث مُعاذًا إلى اليمن أمره أن تكون بداية الدعوة إلى التَّوحيد، فقال: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يُوحدوا الله».

أيها الإخوة إذا كانت الدعوة إلى التَّوحيد أمرًا ذا أهميةٍ بالغة فيما مضى، فإن الأهمية اليوم أشد، والمسؤولية أعظم، وترجع أسباب ذلك إلى ما يأتي:

السبب الأول: الخلل العقدي المُنتشر في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وأُنبه ابتداءً إلى أن الدعوة إلى التَّوحيد لا ينبغي أن تكون مقصورةً على المجتمعات التي يكثر فيها الشرك وتفشو فيها قوادح التَّوحيد، بل المجتمعات المسلمة التي سلِمَت من هذه الآفات تتأكد فيها أيضًا الدعوة إلى التَّوحيد، النبي عليه الصلاة والسلام بايع أصحابه وهم أئمة الموحدين على الثَّبات على التَّوحيد، ففي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مجلس فقال: تُبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا ولا تزنوا ولا تسرقوا..» إلى آخر الحديث وهو في **الصَّحِيْحَيْن**.

وفي حديث عوف بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: إلا تبايعون رسول الله؟ فسألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام عن سبب البيعة وقد بايعوه في السابق، فكرر السؤال فكرر الجواب حتى قال: «**على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس**» إلى آخر الحديث وهو في «صحيح مسلم» لماذا

كل ذلك أيها الأحبة؟ لم يكن إلا لأن التَّوحيد أعظم الأمور وأهمها وأشرفُها، أقول: على افتراضي سلامة المجتمع المسلم من نواقض التَّوحيد وقوادحه فإن الدعوة إلى التَّوحيد والتواصي به قضيةٌ متحتمة، فكيف وقد ضَرب الشرك في كثير من نواحي المجتمع الإسلامي بجدور راسخة، وعشعشت الجهالات والخُرافات في عقول كثيرٍ من أبنائهم مع الأسف الشديد.

تأملوا يا أيها الأحبة كم الذين يتوجهون بالدعاء لغير الله؟ كم الذين اجتمعوا حول القبور، فهتفوا باسم أمواتٍ قد تشتت عظامهم وتقطعت أوصالهم، وقد أعرضوا عن دعاء العزيز الغفار الحي الذي لا يموت سبحانه، كم أولئك الذين جعلوا الأضرحة مزارات يطوفون بها ويتبركون ويقبلون وينذرون لأصحابها ويذبحون، مع انحناء الرؤوس وبراعة النفوس.

كم أولئك الذين يدَّعون علم الغيب؟ أو أولئك الذين يسألونه سواءً كان بقراءة فنجان أو كف رغبةً في معرفة مفقود أو سبب مرض أو حالٍ مستقبلة، كم عدد المجلات الهابطة التي تعج بذكر الأبراج وما يجري فيها من سعود أو نحوس؟

هم أولئك الذين يؤمون السحرة بقصد ما، إما صرف، وأما عطف وأما أذية، وأما ربط.

كم الذين يقصدونهم بغرض النشرة الشركية يعني حل السحر بمثله، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «كما عند أحمد وأبي داود بإسنادٍ حسن : «**إنها من عمل الشيطان**».

كم الذين يستهزئون بالدين وأحكامه؟ بالقول بالكتابة بالتمثيل بالرسوم الذين يسخرون بالحجاب، يتندرون باللحى، أو بتقصير الثياب، كم الذين يغمزون في الشَّريعة بأسلوب

رمزيٍ تارة وصريحٍ تارةً أخرى، فيصفون الإسلام بظلم المرأة حينما جعل القوامة للرجل، وجعل الطلاق بيده أو شرع له التعدد، أو يصوفون الإسلام بالوحشية؛ لأنه شرع القصاص أو الحدود أو أنه غافل عن أن يستوعب أحكام السياسة والاقتصاد، كم الذين يسبون الدِّين وربما سبوا ما هو أعظم؟ كم مرضى القلوب الذين تظهر من فلتات في ألسنتهم وهم من أبناء المجتمع المسلم، لكنهم يُريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به.

كم الذين علقوا التمائم على أعناقهم وسواعدهم أو على سياراتهم ودوابهم، أو على دكاكينهم وأبواب بيوتهم، كم الذين يتطيَّرون ويتشاءمون عند رؤية حادث سير أو طائر أسود، كم دب في عالم المسلمين اليوم من داء ضعف الولاء والبراء من الكُفْر وأهله، أثمر ذلك تشبُّهًا بالكفار في العادات والهيئات، ودعا إلى محبتهم واتخاذهم أولياء، كم الذين يحلفون بغير الله ؟ كم المتوسلون بالجاه والحق؟ كم الواقعون في أصنافٍ طويلة وفي وسلسلة لا تكاد تنتهي من البدع العملية والاعتقادية.

أنا أسألكم -يا أيها الأحبة- الانكباب على المعاصي والإصرار على السيئات والمجاهرة بالموبقات أليست ناشئة عن ضعف التَّوحيد؟ بلى والله، والبلية بهذا الأمر عظيمة، والغفلة عن تأثير ذلك على التَّوحيد كبيرة، وإن الإصرار على الذنوب لا ينشأ إلا عن محبة ما يُبغض الله، أو كراهة ما يُحب أو تعلُّق القلب بغير الله، وكل هذا نقصٌ في التَّوحيد.

أنتقل الآن إلى سببٍ ثانٍ يُدرك الجميع أن العالم اليوم أضحى يعيش ثورةً هائلةً في وسائل الاتصال والإعلام، هذه الوسائل حملَتْ عبر أثيرها غزوًا عقديًّا أضحى يُطل علينا من كل باب، وذلك وفق خُططٍ مدروسة تسعى لطمس العقيدة الإسلامية في النفوس، لا يخفى

علي ولا عليكم أن التلفاز القنوات الفضائية الشبكة العالمية وأخواتها من وسائل الإعلام هي -مع الأسف الشديد- المؤثر الأكبر اليوم في نفوس النشء والشَّباب، بل والمجتمع بعامة.

والآن أسأل كم القنوات التي أُدخل بها الفضاء، وأصبحت تُمطر المسلمين بوابلٍ من الشر؟ هذه قنوات للتنصير، وتحسين دين النصارى في نفوس الأطفال، قنوات تُشكك في الشرع تُزين الانسلاخ منه، أخرى تخصصت في السحر والشعوذة أو نشر البدع والخرافة، أو الطعن في أهل السُّنَّة والحط منهم، ناهيك عن بعض القنوات وهذه مسألة مهمة قدَّمت نفسها للناس على أنها قنواتٌ إسلامية، والواقع أنها حربٌ على عقيدة السلف الصالح، وذلك لما تطرحه من فِكرٍ عقلاني يُقدِّم العقل على النقل ويزين البدع ويُرفع من قدر أربابها، ويدعو التشكيك لأحكام الدين بالتحلل من ربقة الابتداع، وذلك باسم الإسلام العصري كما يُقال الذي يطوع فيه الدِّين على حسب الرَّغبات والأهواء، إلى غير ذلك من الشرور التي لا تخفى عليكم.

إن انتقلنا إلى الشبكة العالمية المعروفة بالإنترنت، فذاك البحر الذي لا ساحل له، حدِّث يا -رعاك الله- ولا حرج، عمَّا تزخر به الملايين من صفحاتها ومواقعها ومنتدياتها، من السُّم الزُّعاف الذي يصيب عقائد المسلمين في مقتل، إلحاد وشرك وبدع وانحلال، وكل من له عناية بالشبكة -وأظنكم جميعًا كذلك- يُدرك حجم الخطر الذي تُمثله على التَّوحيد.

سبب ثالث يا أيها الأحبة: نشاط ملل الكفر في نشر معتقداتهم وأباطيلهم بصورةٍ لم يُعهد لها مثيلٌ في السابق، لقد تجاوز الكفار اليوم في محاربتهم للإسلام وعقيدة الإسلام الأساليب التقليدية السابقة، واستحدثوا وسائل جديدة تهدف إلى أمرين:

الأول: إخراج المسلمين عن دينهم أو تشكيكهم فيه.

والثاني: تغيير الإسلام نفسه في نفوس المسلمين، وذلك من خلال بث مفاهيم مغلوطة، تتمخَّض عنها عقيدةٌ باهتة لا لون لها ولا طعم ولا رائحة، مُستغلين في ذلك هيمنتهم السياسية، إحكام قبضتهم، على وسائل الإعلام العالمية، تأثيرهم على كثير من الدول -لا سيما الفقيرة- على وجه الخصوص على المناهج التعليمية، ويُساعدهم في ذلك آخرون من بني جلدتنا يُظهرون فكرًا وتنويرًا ويبطنون علمنةً وإلحادًا، وقد يبلغون ذلك.

سبب رابع: نشاطُ أهل البدع في نشر عقائدهم ومحاربة التَّوحيد وأهله، من سنة التَّوحيد ومن سنة الله في خلقه -يا أيها الأحبة- أن الحرب بين الحق والباطل سجال، وإن كانت العاقبة للتقوى، لذلك أن المعركة بين أهل التَّوحيد والسنة وأهل البدعة والخرافة قديمةٌ حديثة، ويُعجبني في هذا قول ابن القيم رحمه الله الذي ذكره في كتابه «اجتماع جيوش الإسلامية» الذي بين أهل الحديث والجهمية من الحرب أعظم مما بين عسكر الكفر وعسكر الإسلام، وصدق رحمه الله وما قيل عن الجهمية يُقال عن سائر فرق الضلال، أهل البدع في هذا العصر -أيها الكرام- ينشطون على قدمٍ وساق لدك حصون السُّنَّة، وبث الشُّبه، واستئصال شأفة التَّوحيد، والطعن في علماء السُّنَّة، ونقد مصنفاتهم، ولكن يأبى الله إلا أن يُتم نوره، ولم يَعُد سرًّا ذلك الدَّعم الكبير الذي تُدعم به كثيرٌ من تلك الفرق من قِبل أعداء الله الكفرة، حتى صار لهم على اختلاف طرائقهم قنواتٌ فضائية مواقع شبكية مراكز بحثية معاهد علمية، مصنفات، مجلات ورقية إلكترونية، بل امتد نشاطهم ليصل إلى بلدان لم يكن لهم فيها في السابق موطئ قدم، -وهذا ولا شك- خطرٌ محدق، يُنذر بشرٍ مُستطير وعاقبةٍ

وخيمة.

السبب الخامس: لا يُجحد يا أيها الكرام أن الجهود المبذولة في الساحة الدعوية اليوم كثيرة ضخمة غير أن ثمرتها والحق أحق أن يُتَّبع، أقول: ثمرتُها ليس كما يؤمل منها، وذلك راجعٌ فيما هو راجعٌ إليه إلى الخلل في المنهج الدعوي لدى كثير من القائمين بتلك الجهود، سواءً أكانوا أفرادًا أو جماعات، وأبرز ذلك الخلل من وجهة نظري لدى أولئك: إهمال الدعوة إلى التَّوحيد، فالواقع يشهد بتقصير أولئك الكبير في بيان حقيقة التَّوحيد وتوضيح مسائله، والواقع يشهد بضعف عنايتهم بذلك، هذا إن سلموا من التهوين منه أو محاربة الداعين إليه، أو سلِموا من الخطأ في فهمه أو من الوقوع فيما يُخالفه، وهذا لا شك أنه شيءٌ مؤسف، والشواهد عليه كثيرة.

وصنفٌ من أولئك الدعاة يزعمون أن إعطاء التَّوحيد حقَّه من الدعوة، عائقٌ أمام اجتماع الأمة واتحادها، فلذلك يتحاشون الحديث عنه، أو يُجملون إن تحدثوا عنه ولا يُفصلون، أو يقصرون الحديث على جانبٍ منه، حتى لا تنفض الجموع عنهم انطلقوا أبوابًا أُخرى.

ويضطر المسلم أن يقول: ما أجهل هؤلاء في الحقيقة الناصعة، التَّوحيد أعظمُ رابطة وأقوى وشيجة تجمع أهل الإيمان حقًّا: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧]، ما أقبح الداعية، الذي جُلَّ همِّه إرضاء الناس وتكثير سوادهم حوله، وتنامي بريق شُهرته والله المستعان.

يا أيها الأحبة ولقد أفرز الحرص على التجميع، وارتفاع الرصيد الجماهيري كما يقولون، مع قلةِ التَّحصيل الشرعي وضعف الارتباط بمنهج السَّلف، خللًا آخر، ذلكم أنك

تجد بعض أولئك الدُّعاة يؤصل المسائل الشرعية وهو واقعٌ تحت ضغط الواقع، أو متأثر بالطرح الإعلامي الشائع، لذا فَهُم يمارسون أحيانًا عملية تغييب لمفاهيم شرعية أصيلة، ويُبرزون مبادئ إسلامية ناقصة، بل رُبَّما على حين غفلةٍ منهم أصبحوا يُرددون ما يُريد أعداؤهم أن يقولوه، كلمات مشتبهة عبارات مشبوهة تهون من العقيدة أو من حجم الخلاف مع مخالفيها، أو تكسر حاجز البراءة من الكُفَّار إلى غير ذلك من المفاسد -والله المستعان-.

أيها الأحبة، لا أُريد أن أُطيل في تعداد الأسباب، ولكن أُريد أن أقول: إذا تبين مما سبق أن الدَّعوة إلى التَّوحيد قضيةٌ حتميةٌ ملحةٌ في هذا العصر لا خيار في ذلك وأن الأسباب التي سبقت ينبغي أن تشحذ الهمم للتفصيل به، والدعوة إليه، فهذه وصايا أُوجهها إلى نفسي أولًا، ثم إلى إخواني ثانيًا:

الوصية الأولى: الدعوة إلى التَّوحيد تستلزم أن يتحقق من يدعو إليه أولًا هو بالتَّوحيد، ففاقد الشيء -يا أحبتي- لا يُعطيه، أولى الناس بالعناية بالتَّوحيد الدعاة إليه أنفسهم تعلُّمًا وعملًا وتحقيقًا.

تأمل معي -رعاك الله- في قول الله جل وعلا: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧]، ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [القصص:٨٨]، لاحظ كيف كانت البداية بالداعية نفسه، ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ ثم التنبيه، ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إذًا ابدأ بنفسك يا أيها الموفق.

تأمل هذا أيضًا في قوله جل وعلا: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨] .

إذًا ألصق الناس بالتَّوحيد وأبعدهم عن ضدِّه هم الدعاة إلى التَّوحيد.

على الداعية إن كان صادقًا أن يُراقب نفسه ويُمحِّص النوايا وأن يحذر من الهوى، وحُب الظُّهور وطلب الجاه والرئاسة، وعلي ألا يكترث بالكثرة، فلا يعملُ لها ولا يغتر بها فهو داعية إلى الله لا إلى نفسه.

الوصية الثانية: الدَّاعية الناجح يا أيها الأحبة هو الواقعي في دعوته، وذلك الذي يُسخر ما يستطيع لخدمة الدعوة.

الدعاة إلى التَّوحيد مطالبون اليوم باستخدام وسائل الدعوة ذات التأثير البليغ في النُّفوس، التي تصل إلى أكبر شريحة من المدعوين، بشرط كونها خالية من المحاذير الشرعية، فالغاية عندنا لا تُبرر الوسيلة.

إن تدريس متون التَّوحيد، إلقاء الخطب المحاضرات الكلمات نشر الرسائل والمطويات المشاركة في الصحافة الرَّد على المخالفين، المشاركة في مواقع الشبكة تنقية تراجم معاني القرآن والحديث من الأخطاء العقدية، هذه الوسائل وغيرها كثير يستطيع المرء أن يُشارك في الدعوة من خلالها، وأن يضرب بسهمه في هذا الخير بها، وكلٌّ بحسب طاقاته وإمكاناته، والله عز وجل قسم الأعمال كما قسم الأرزاق.

وصيةٌ ثالثة: على الدَّاعية إلى التَّوحيد -أيها الأحبة- أن يكون فقيهًا في دعوته، وهذا الموضوع طويل الذيل، لذا سأكتفي منه بإشاراتٍ يسيرة.

أولًا: إن من الأهمية بما كان أن يسعى الداعية من الانتقال من دفن الوعي العلمي إلى بثِّ الوعي العملي، بمعنى ألا يكتفي ببث العلم المجرد وتأصيل المسائل في العقول، بل

عليه أن يسعى أن يكون لها صدى في القلوب، فتُثمر محبة الله، وإيثار مرضاته وتعظيمًا للسنة، والتزامًا بها وتقديمًا لها على المذاهب والعقول والأهواء.

أن تصل النفوس إلى التزكية التي هي من أعظم مقاصد الدعوة، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة:٢] .

ثانيًا: على الداعية إلى التَّوحيد أن يكون حكيمًا في دعوته، فيُعامل كل صنفٍ من المدعوين بحسبه، ثمة الجاهل جهلًا بسيطًا والجاهل جهلًا مُركَّبًا، ثمة السهل، ثمة الجافي، ثمة المتواضع، ثمة المتكبر، هكذا الناس يتفاوتون في قيامهم بالتَّوحيد، كما يقول ابن القيم رحمه الله: «من الناس من تكون شهادته ميتة» يعني شهادة التَّوحيد في قلبه ميتة، «ومنهم من تكون نائمة فإذا نُبهت انتبهت، ومنهم من تكون مُضطجعة، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب» وهي يعني الشهادة «في القلب بمنزلة الروح في البدن، وروح ميتة وروح مريضة إلى الموت أقرب وروح إلى الحياة أقرب، وروح صحيحةٌ قائمةٌ بمصالح البدن» ولعلك تُراجع كلامه هذا الحسن في كتابه «الداء والدواء».

إذًا الداعية مطالب أن يدعو كل صنفٍ بالأسلوب المناسب له، فيستعمل التَّصريح في موضعه والتلميح في موضعه، الشدة في موضعها، واللين في موضعه، الهجر في موضعه والتأليف في موضعه، وهذه الأمور مرتبطة بالمصلحة وجودًا وعدمًا.

ثالثًا: وهذا أُفرع به على ما سبق، إن على الداعية يا أيها الأحبة أن يلحظ جانب الرحمة في دعوته، وهذا ما نتلمسه من هديه عليه الصلاة والسلام، حينما قال في قوم أعرضوا عن

دعوة التَّوحيد أول الأمر: اللهم أهدِ دوسًا وأتِ بِهم» وكانت وصيته لدعاة التَّوحيد من أصحابه كما في **الصَّحِيْحَيْن**: «**بشِّرا ولا تُنفِّرا**» بل أقول: حتى إذا اقتضى المَقام واقتضت الحكمة تغليظ الخطاب والشدة في الأسلوب أحيانًا فينبغي أن يكون الدافع إلى ذلك الشفقة بالمخالفين ورحمتهم، والحرص على هدايتهم.

لا يخفاكم -يا أيها الأحبة- أن النظر إلى المخالفين في التَّوحيد ومعاملتهم ينبغي أن تكون من جهتين:

الأولى: أن يُعاملوا بما يستحقون من العقوبة والزجر والبغض، وفق ميزان المصلحة والمفسدة، وأنتم تعلمون أن أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.

الجهة الثانية : عبر عنها شيخ الإسلام بكلام حسنٍ جدًّا في «الفتوى الحموية» قال: «**وإذا نظرت إليهم بعين القدر**» ويتكلم عن أهل البدع والحيرة مستولية عليهم والشيطان مستحوذ عليهم رحمتهم، ورفقتَ بهم، أُوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً، وأُعطوا فهومًا وما أُعطوا علومًا..» إلى آخر ما قال رحمه الله.

رابعًا: حبذا لو اعتنى داعيته إلى التَّوحيد في خطابه الدعوي ببعض الوسائل، منها مثلًا اختيار العناوين الجاذبة للمحاضرات والرسائل المؤلفة في التَّوحيد، أو نحو ذلك مما هو مشتغلٌ به، لأن المطلوب إيصال العلم النافع للناس واستعمال الوسائل المُباحة المتاحة، لا شك أن ذلك أمر مطلوب.

أيضا تأمل لطائف القرآن وعرضها للناس استنباط الدروس من خلال القصص، والنفوس مجبولةٌ على حب القصص من خلال القصص الثابت في السنة أو من خلال

القصص الثابت في السيرة النبوية أو مَجَاعًا قصص الأنبياء أو قصص السلف الصالح، يستطيع الإنسان أن يستنبط دروسًا عظيمة للتوحيد لو وفق إلى ذلك.

أيضا ضرب الأمثال، جعل توحيد الربوبية وعظمة الله وخلقه، وما في هذا الكون من العجائب والأسرار، جعل ذلك وسيلةً إلى الدعوة إلى توحيد العبادة، وهذا مسلكٌ قرآنيٌ معلوم.

أيضا الدخول من خلال توحيد الأسماء والصفات، وبيان ما الله عز وجل متصفٌ به من نعوت الجلال والجمال، وأثر ذلك في النفوس الذي يثمر المحبة والتعظيم والإنابة إلى الله عز وجل وحده.

في الجملة -يا إخواني- من كان التَّوحيد همه فسيجد طريقه للدعوة إليه، والله ولو كان يتحدَّث عن الطهارة أو عن الأخلاق أو حتى أو حتى عن الاقتصاد، من وُفق إلى الأسلوب المؤثر في الدعوة إلى التَّوحيد فقد أُوتي خيرًا كثيرًا.

الوصية الرابعة: يجب أن يعلم الدعاة إلى التَّوحيد أن من أسباب قوة دعوتهم اتفاقهم وتعاونهم على البر والتقوى، والضد بالضد: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

من أعظم العقبات التي تعترض طريق دعوة التَّوحيد: تفرُّق الدعاة إليه، مع كونهم يسلكون مسلك المنهج الصالح جميعًا، تفرُّق الدعاة يعني مزيدًا من نشاط أعدائهم، يعني مزيدًا من جرأة خصومه في إظهار باطلهم والترويج له.

على الدعاة الناصحين أن يتقوا الله في الأمة، وأن يسعوا جهدهم في تأليف القلوب، ونبذ

العداوات وتهميش حظوظ النفس، وأن يُشمروا عن ساعد الجد في لم الشمل ورأب الصدع، وبث النصح، وتقديم حسن الظن تحقيقًا لقوله جل وعلا: ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ النزاع الشحناء لها عواقب وخيمة وكيف لا يكون الأمر كذلك؟ والنبي عليه الصلاة والسلام كما عند الترمذي وأبي داود يقول في شأن النزاع والتفرق: «إن فساد ذات البين هي الحالقة» ولذلك لما أرسل رَكب الدعوة إلى التَّوحيد معاذ وأبا موسى رضي الله عنهما قال: «**تطاوعا ولا تختلفا**» يجب أن تجتمع النفوس وأن تجتمع القلوب على الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.

وصية خامسة: ليحذر دعاة التَّوحيد والشُّداة لإصلاح النفوس وتقريبها من خالقها جل وعلا ليحذروا أن يتسلل إلى نفوسهم اليأس، أو الشعور بالإحباط، حين النَّظر إلى الواقع المؤلم أو إلى جهود الأعداء، بل الواجب أن يكون ذلك دافعًا إلى مزيدٍ من النشاط والاجتهاد واستشعار المسؤولية، فلا تنسى يا أيها الأخ الحبيب: أن الله ولي الذين آمنوا، الله عز وجل حينما أرسل موسى وهارون قال: وهما من أعظم دعاة التَّوحيد، لاحظ معي، قال لهم: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦] .

إذًا كل من سار على هذا المنهج منهج الأنبياء والمرسلين، فله حظٌّ من معية الله عز وجل المقتضية لنُصرته وتأييده، وإذا كان الله معك فلا يحزنك ما فاتك ولا تبتئس بما تلقاه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

كما أن على الداعية أن يحذر من أمر مُهمٍ وخطير وهو من حيل النفوس ووساوس الشيطان وهو أن يزدري نفسه، ويتوهم أنه أقل من أن يدعو أو ينصح، إما ب بالتذرع بقلة

العلم وضعف في التحصيل أو غير ذلك، وهذا يا إخواني من أعظم تلبيس الشيطان على أهل الخير.

مقام الدعوة -ولابد أن نتنبه إلى هذا- ليس مقام إفتاء، ولا عُذر لأحد في أن يُقدم الكثير في سبيل نصرة التَّوحيد.

العصر الذي نعيشه يا إخواني وقد عرفت -أيها الموفق- طرفًا من حاله ليس فيه مجالٌ لإظهار التواضع البارد، يا -رعاك الله- قد حمي الوطيس بين الخير والشر والهدى والضلال، التحمت الصفوف فمن الحرمان ورب السماء أن يعتزل من فيه خير وهو يرى محارم الله تُنتهك، لا سيما ما يمس جناب التَّوحيد، وهو بارد لا يُحرك ساكنًا، النشاط النشاط يا أهل التَّوحيد، والثبات الثبات مهما عصفت رياح الفتن، واليقين اليقين بنصر الله، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠] ، ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٦٧].

وصيةٌ سادسة: -وأختم بها كلامي- أيها الموحد طالب العلم الأخ الموفَّق يجب أن نعلم أن الدعوة إلى الله تحتاج إلى رجالٍ صادقين يبذلون النفس والنفيس في سبيل الله جل وعلا، ويسترخصون الغالي لإعلاء كلمة الله.

الجاد في تجريد المتابعة للنبي عليه الصلاة والسلام ينبغي أن يعلم أن الدعوة إلى الله هي سبيله عليه الصلاة والسلام، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨] . هذه السبيل فأين المشمِّرون؟ أن التَّوحيد يا أهل التَّوحيد نعمة والدعوة إليه من شُكرها، ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨]، وأيُّ

نعيمٍ أعظم من التَّوحيد، من أراد منَّا -يا أيها الأحبة- أن يكون من الشاكرين، لهذه النعمة فليُعطي الدعوة إليه أصول وقته واهتماماته، ليكن ذا همةٍ وحماس، وحِرصٍ على هداية الخلق، وليسترخص ذاته في ذات الله جل وعلا.

يعجبني في هذا كلام أسوقه لك لابن الجوزي رحمه الله يصف الإمام أحمد، ذكره في ترجمته للإمام أحمد في مناقب الإمام أحمد يقول فيه رحمه الله: هذا رجل هانت عليه نفسه في الله تعالى فبذلها، كما هانت على بلال نفسه، وقد رُوينا عن سعيد بن المسيب أنه كانت نفسه عليه في الله تعالى أهون من نفس ذباب، وإنما تهون أنفسهم عليهم لتلمحهم العواقب، فعيون البصائر ناظرةٌ إلى المآل لا إلى الحال. انتهى كلامه وصدق رحمه الله. وهكذا الصادقون.

يجب أن تعلم -أيها الموفق- أن صدق الإيمان يقتضي أن يكون في العبد غضبٌ أن تنتهك محارم الله وإجلالٌ له وتعظيم، واعتقاد أن الله عز وجل أهلٌ أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يُفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال، بعض السَّلف كان يقول: «وددت أن جسدي قُرِّض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوا الله» من لطيف ما يُذكر في هذا المقام تعظيم السلف لحرمات الله جل وعلا، لا سيما ما يمس جناب التَّوحيد ما أخرجه أبو نعيم عن أحد السلف وهو خناس بن سحيم قال: «**أقبلتُ مع زياد ابن جرير من الكناسة**» يعني المحل الذي كان تُرمى فيه القمامة أو تُقضى فيه الحاجات قال: «فقلتُ في كلامي: لا والأمانة» ماذا قال يا أيها الأحبة؟ «لا والأمانة» يعني حلف بغير الله، ما أكثر اليوم ما نسمع الحلف بغير الله، وما أكثر ما يمر هذا على مسامعنا ولا نُحرك

ساكنًا، لكن ماذا جعل زياد رحمه الله يفعل؟ قال: «**فجعل يبكي ويبكي**» بكى تعظيمًا لله جل وعلا، يقول: «حتى ظننتُ أني أتيت أمرًا عظيمًا، فقلتُ له: أكان يكره ما قلت؟ قال: نعم، كان عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي».

وأيضًا ساق بإسناده عن ربيع بن عتَّاب قال: «**كنت أمشي مع زياد بن جرير هو نفسه فسمع رجلا يحلف بالأمانة فنظرتُ إليه وهو يبكي. قلتُ: ما يُبكيك؟ قال: أما سمعت هذا يحلف بالأمان، فلأن تُحك أحشائي حتى تدمي أو حتى تُدمى أحب إلي من أن أحلف بالأمانة**».

انظر إلى تعظيم حرمات الله كيف لو سمع ما نسمع اليوم من الشِّرك الأكبر لله جل وعلا ماذا كان يصنع؟ الله المستعان.

يا إخواني اختم بأن أقول:

ذوي النفوس الكبيرة لهم إحساس مُرهف وشعورٌ متوقد، حتى إن الناس يُذنبون وهم يتجرَّعون مرارة الذَّنب، النَّاس يُفسدون وهم يتحملون أعداء الإصلاح لما أفسدوا، النَّاس يُسيئون وهم يجدون عذاب تلك الإساءة، يتعبون أنفسهم ليُريحوا غيرهم، يُشقوا أبدانهم وأرواحهم، وأرواح الناس وأبدانهم.

يا أهل التَّوحيد الحمل ثقيل والأمانة عظيمة، والجنة غالية، والله يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] أسأل الله أن يصلح قلوبنا وأن يملأها بحبه، وأن يوفقنا لطاعته وأن يستعملنا في مراضيه، وأن يجعلنا من جُنده وأنصار دينه، إن ربنا لسميع الدعاء.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وأصحابه واتباعه بإحسان.